

الحياة الدينية في الحجاز قبل الإسلام



فيصل محمد العلي(*)
إشراف أ.د فتحي أبو سيف

إن عقيدة عرب الجاهلية - من خلال طقوسهم - عقيدة غير ثابتة الأركان ، ولا تقوم على أساس واضح من أسس الأيديولوجية الواعية ؛ وإنما هي مجرد عقيدة بدائية تنسجم إلى حد بعيد مع حياتهم السياسية والاجتماعية والثقافية البعيدة عن التقدم . وكانت ديانتهم تتميز بالتنشئت والتجرو ، نظراً لكونها ديانة قبلية تعتمد في المقام الأول على المعبود الخاص بكل قبيلة ، سواء تمثل هذا المعبود في الأصنام والأوثان أو في الكواكب وظواهر الطبيعة أو في الأرواح التي تسكن هذه الأشياء جميعاً ؛ وهي في مجملها عبادات مورست بشكل ساذج وسطحي من قبل العرب .

ومهما يكن من أمر ، فإنه يمكن القول أن العرب كانوا على دين إبراهيم عليه السلام ، أي أنهم كانوا موحدين^(١) وتقرن فكرة التوحيد بنشأة الكعبة

(*) معيد متفرغ في قسم التاريخ ، جامعة الفرات ، سوريا . طالب ماجستير بقسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس .

وبإبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام ، وانتشر التوحيد بين القبائل في مكة وما حولها ، ولعله انتشر منها إلى مناطق أخرى في شبه الجزيرة العربية ، فيعتقد أن بلاد العرب عرفت التوحيد منذ النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد ^(٢) ، واستمر الأمر على هذا الحال حتى جاءت الوثنية والصنمية ^(٣) ؛ وانتشرت بين العرب انتشاراً واسعاً ، والحقيقة أنهم صوروها أو نحتوها رمزاً لآلهته ^(٤) .

ولكن كيف انتشر الوثنية ؟ وهل كانت هذه الديانة (الوثنية) دخيلة على جزيرة العرب أم ماذا ؟ تعدد الروايات وتضارب الآراء وتشعبت حول هذا الأمر ، فإحدى الروايات تقول : إن قبيلة خزاعة - وهي إحدى قبائل الأزد اليمنية التي هجرت بلادها إثر تهدم سد مأرب - جاءت وسكنت في مكة بجوار جرحم ، ثم نشب صراع بينهما حول خدمة البيت الحرام ، وكان النصر في النهاية لصالح خزاعة ، ولما تولى عمرو بن لحي بن قعدة بن خندف - زعيم

١ - جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط٤ ، دار الساقى ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م ، ج١٢ ، ص٢٦ ، منصور عبد الحكيم ، بلاد الحجاز ، ط١ ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٦م ، ص١٢٥ .

٢ - عبد الرحمن الطيب الأنصاري ، الأحوال العامة للجزيرة العربية عند البعثة النبوية ، دراسات تاريخ الجزيرة العربية ، ط١ ، جامعة الملك سعود ، الرياض ، المجلد الثالث ، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م ، ج١ ، ص٩ .

٣ - أي عبادة الأوثان والأصنام . فكل من اتخذ إليها من دون الله غير المرني واللامتناهي ، فهو وثني أو صنمي . (سميح دغيم ، أديان ومعتقدات العرب ، ط١ ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ، ١٩٩٥م ، ص٨٦) .

٤ - شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهلي ، ط٢٤ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٠م ، ص٨٩ .

خزاعة - زمام الأمور في مكة ، قام بجلب الأصنام من الشام إلى الحجاز^(٥) ، وقيل أن عمرو هذا ، استخرج الأصنام التي كان يعبدها قوم نوح وهي ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، حيث كانت مدفونة في منطقة جدة ، على ساحل البحر الأحمر ، فاستخرجها وجاء بها ودفعها إلى القبائل لعبادتها ، ناشراً عبادة الأوثان من دون الله في أنحاء شبه جزيرة العرب^(٦) .

ولكن يبدو أن هذه القصة ليست حقيقة تاريخية ، لأن من تتبع قصص الأنبياء الذين نشأوا في شبه الجزيرة العربية في القرآن الكريم ؛ يلاحظ أنها عرفت الوثنية بأشكال متعددة ، قبل أن تعرف رسالات السماء ، فعندما تقول عاد لهود عليه السلام قال تعالى : (قَالُوا يَا هُوَذَا مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)^(٧) . هذا يعني أن قوم عاد هم أول من عبد الأصنام بعد الطوفان فكانت أصنامهم ثلاثة : صدا ، وصمودا ، وهرا ؛ وبالتالي أن بلاد العرب عرفت الوثنية قبل قصة عمرو بن لحي^(٨) .

وهناك روايات أيضاً ، تفيد أن تأليه الحجارة وتقديسها يرجع إلى ما قبل أسطورة عمر بن لحي ؛ فالعرب عندما بدأوا ينزحون عن مكة - بعد أن

^٥ - ابن كثير ، البداية والنهاية ، تحقيق عماد زكي البارودي ، خيري سعيد ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، ج ٢ ، ص ٩٩ .

^٦ - الذهبي ، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تحقيق : عمر عبد السلام تدمري ، ط ١ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م ، ج ٢ ، ص ٥٥٠ ، محمود عرفة ، العرب قبل الإسلام وأحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهر حضارتهم ، ط ١ ، عين للبحوث والدراسات الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م . ص ٢٢٤ .

^٧ - سورة هود ، الآية ٥٣ .

^٨ - ابن كثير ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٢١ .

ازدادت أعدادهم بها - وبما أنهم كانوا يعظمونها ويقدسون حجارتها ، فقد أخذوا يحملون معهم في ترحالهم بعضاً من حجارتها ومن الحجارة المجاورة لها ، تيمناً بقديسياتها وألوهيتها . وأينما حلوا كانوا ينصبون هذا الحجر ويطوفون حوله كطوافهم حول الكعبة ، فيصبح الحجر عندهم مقدساً فيعبدوه . ومن هذا يظهر أن الوثنية فيهم قبل عمر بن لحي بما عبده من حجارة الحرم في أسفارهم ^(٩) .

ويمكن القول أنه رغم تضارب وتعدد الروايات في تحديد زمان وبداية عبادة الأصنام ، إلا أن تحديد هذه المسألة لا تتطلب إرجاعها إلى شخص معين ، بل ربما كانت حالة نتجت عن وضع معين . فالإنسان كما هو معروف ، دائماً مشدود ويميل على القوى الخفية التي يعتبرها أقوى منه وتسيّره . ولربما كان بناء الكعبة على أيام إبراهيم وابنه إسماعيل ، وما روي عن هذه المسألة في قصة الحجر الأسود وكيف وجده إبراهيم ما يشير إلى بداية خلع القداسة على الأحجار ، وربما كان ذلك سوء فهم من الأعراب ، ولكن هذه العادة سرت بينهم وتقبلوها نظراً لسذاجتهم وفطرتهم ، فحملوا معهم الأحجار وقدسوها وأسبغوا عليها من تمنياتهم وألوهها حين شعروا بالحاجة إلى ذلك ^(١٠) .

ومن أهم الأصنام التي عبدها أهل الحجاز قبل الإسلام ، هي :

^٩ - سميح دغيم ، آديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام ، ص ٨٧ .

^{١٠} - سميح دغيم ، المرجع نفسه ، ص ٨٨ .

- اللات :

كانت اللات عبارة عن صخرة مربعة الشكل، يلت يهودي عندها السويق، وكان سدنته "بنو عتاب بن مالك" وهم من ثقيف، وكانت العرب ومنها قريش، تعظمه وتحج إليه وتطوف به أيضاً^(١١). استمر الأمر على هذا الحال حتى أسلمت ثقيف، فبعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبه فهدمها وحرقها بالنار. وفي ذلك يقول شداد بن عارض الجشمي حين هدمت وأحرقت ينهي ثقيفاً عن العود إليها والغضب لها :

لا تنصروا اللات إن الله مهلكها وكيف نصركم من ليس ينتصر

إن التي حرقت بالنار فاشتعلت ولم تقاتل لدى أحجارها هدر

وقال أوس بن حجر يحلف باللات :

وباللات والعزى ومن دان دينها وبالله إن الله منهن أكبر^(١٢)

وكان موضع هذا الصنم تحت منارة مسجد الطائف اليسرى ، الذي بني على أنقاض ذلك المعبد، بمعنى أن مسجد الطائف هو معبد اللات القديم^(١٣).

- العزى :

هناك روايات تقول أن صنم العزى هو عبارة عن صنم أنثى من الحجر ، وهناك روايات تقول أن هذا الصنم عبارة عن شجيرات وليس من الحجر^(١٤)،

^{١١} - جواد العلي ، المفصل ، ج ٧ ، ص ١٤٥ .

^{١٢} - ابن الكلبي ، الأصنام ، تحقيق أحمد زكي باشا ، ط ٣ ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م ، ص ١٦ .

^{١٣} - ابن الكلبي ، المصدر نفسه ، ص ١٦ ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٤ .
- ٢٦٣ -

وهذا الصنم كان لقريش وبني كنانة ؛ وأما سدنته فقد كانوا من بني صرمة بن مرة، أو من بني شيبان بن جابر ،،، بن سليم حلفاء بني هاشم . وكان آخر سادن للعزي "دبية بن حرمي السلمي" ^(١٥) ولما افتتح النبي ﷺ مكة ٦٢٩/هـ ٨م، أمر بالقضاء على العزي، فبعث بخالد بن الوليد رضي الله عنه وقال له : انت بطن نخلة، فإنك تجد ثلاث سمرات، فأعضد الأولى . فأتاها خالد بعضدها، فلما جاء إليه ﷺ قال له : هل رأيت شيئاً ؟ فقال خالد : لا، قال ﷺ فأعضد الثانية ؟ فأتاها فعصدها . ثم أتى النبي ﷺ فقال : هل رأيت شيئاً ؟ قال خالد : لا، قال ﷺ : فأعضد الثالثة . فأتاها . فإذا هو بحبشية نافشة شعرها، واضعة يديها على عاتقها، وخلفها دبية بين حرمي الشيباني، وكان سادتها . فلما نظر إلى خالد، قال :

أعز شدي شدة لا تكنبي على خالد ،ألقي الخمار وشمري

فإنك إلا تقتلي اليوم خالدًا فتبوني بذل عاجلاً وتنصري

وأقبل خالد بالسيف إليها وهو يقول :

يا عز كفرانك، لا سبحاتك إني رأيت الله قد أهاتك

١٤ - محمد الخطيب ، المجتمع العربي القديم (العصر الجاهلي) ، ط١ ، دار علاء الدين ،

دمشق ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م ، ص ١٦٦ .

(١٥) جواد العلي، المفصل، ج ١١، ص ٢٤٢ .

ثم ضربها ففلق رأسها، ثم عضد الشجرة، وقتل دبية السادن ثم أتى النبي ﷺ، فأخبره فقال: تلك العزى، ولا عزى بعدها للعرب. أما أنها لن تعبد بعد اليوم^(١٦).

ومما يؤيد الرأي الذي يقول أن "العزى" صنم أنثى، أي تمثال لامرأة، ما ورد في تفسير "الطبري" من قوله: "بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى شعب بسقام ليكسر العزى، فقال سادنها: يا خالد أنا أحذركما إن لها شدة لا يقوم إليها شيء. فمشى إليها خالد بالقأس فهشم أنفها.

- مناة :

كان موضع هذا الصنم على ساحل البحر الأحمر من ناحية المشل بقديد بين مكة والمدينة^(١٧). وكان معظماً عند الأوس والخزرج والأزد وغسان، وكان سدنته من "الغطاريف" من الأزد؛ ويذكر أن تلييته كانت على هذه الصورة: "لبيك اللهم لبيك، لولا أن بكرًا دونك، يبرك الناس ويهجرونك، وما زال حج عتج يأتونك. أنا على عدوانهم من دونك"^(١٨).

^(١٦) الواقدي، المغازي، تحقيق، محمد عبد القادر أحمد عطا، ط ١، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٤ م، ج ٢، ص ٢٩٢، - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري، تحقيق: مصطفى السيد وطارق سالم، المكتبة التوفيقية، القاهرة، (د)، ج ٢، ص ١٦٣.

^(١٧) ابن الكلبي، الأصنام، ص ١٣، ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق محمد فهمي، خيري سعيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٣ م، ج ١، ص ٢١٠، ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م، ج ٥، ص ٢٠٤.

^(١٨) جواد العلي، المرجع نفسه، ج ١١، ص ٢٤٦.

وبعد فتح مكة بعث الرسول ﷺ علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - إلى مناة، فهدمه وأخذ ما كان له، فأقبل به إلى النبي ﷺ^(١٩). وفي رواية للواقدي أن الذي هدم الصنم هو سعد بن زيد الأشهلي، هدمه سنة ثمان للهجرة^(٢٠).

- هبل:

يقول ابن الكلبي: (ت ٢٠٤هـ): "وكانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها، وكان أعظمها هبل. وكان فيما بلغني من عقيق أحمر على صورة إنسان، مكسور اليد اليمنى. أدركته قريش فجعلت له يداً من ذهب. وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر. وكان يقال له هبل خزيمة"^(٢١). وهناك روايات تنسب هبل إلى عمرو بن لحي، تقول إنه جاء به إلى مكة من العراق من موضع هيت، فنصبه على البئر الذي حفره إبراهيم - عليه السلام - في بطن الكعبة، ليكون خزانة للبيت، يلقي فيه ما يُهدى إلى الكعبة، وأنه هو الذي أمر الناس بعبادته، فكان الرجل إذا قدم من سفر بدأ به على أهله بعد طوافه بالبيت، وحلق رأسه عنده^(٢٢). وكانت تلبية من نسك

(١٩) ابن الكلبي، المصدر نفسه، ص ١٤، جواد العلي، المفصل، ج ١١، ص ٢٤٦.

(٢٠) الواقدي، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٦.

(٢١) الأصنام، ص ٢٨.

(٢٢) الأزرق، أخبار مكة، ج ١، ص ١١٧، ابن الضياء، تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبور الشريف، تحقيق علاء إبراهيم، أيمن نصر، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م، ص ٧١.

هبل: "إيبيك اللهم لببيك". إننا لقاح، حرمتنا على أسنة الرماح، يحسدنا الناس على النجاح". وذكر أن "هبل"، هو رمز إلى الإله القمر، وهو إله الكعبة، وهو الله عند الجاهليين.^(٢٣)

٢٠ - أصنام قوم نوح :

يذكر أن هناك خمسة أصنام من أصنام العرب ترجع إلى زمن نوح عليه السلام، وهي: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر، وقد ذكرت في القرآن الكريم: (قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا {٢١} وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا {٢٢} وَقَالُوا لِمَ تَدْرُنَّ إِلَهُتَكُمْ وَلِمَ تَدْرُنَّ وَدًا وَلَا سَوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا)^(٢٤) ويظهر أن ورود اسمها على هذا النحو في القرآن، هو الذي يدفع إلى الاعتقاد أن هذه الأصنام ترجع إلى أيام نوح عليه السلام. كما يذكر أن هذه الأصنام المذكورة كانت في الأصل قومًا صالحين، ماتوا، في شهر، وذلك في أيام "قابيل"، فجزع عليهم بنو قابيل، ونور أقاربهم، وقام رجل من قومهم، ففتح لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم، فصار الناس يعظمونها ويسعون حولها، ثم جاء من بعدهم من عبدها وعظم أمرها، واستمر الأمر على هذا المنوال، حتى أدرك نوح، فدعاهم على الله وإلى نبذ هذه الأصنام، فكذبوه، فكان الطوفان، فأهبط ماء الطوفان هذه الأصنام على الشط

^(٢٣) جواد العلي، المفصل، ج ١١، ص ٢٥٢.

^(٢٤) سورة نوح، الآية ٢١-٢٣.

فسفت الريح عليها حتى وارتها^(٢٥). وبقيت مطمورة هناك أمداً طويلاً ؛ حتى جاء عمرو بن لحي فأتى شط جدة فأخرجها، ثم حملها حتى وصل تهامة. وحضر الحج، فدعا العرب إلى عبادتها قاطبة. فأجابته سادات القبائل، ووزع تلك الأصنام عليهم، فأشاعوا عبادتها بين العرب^(٢٦).

- ود :

وكان الصنم ود من نصيب "عوف بن عذرة ... بن قضاة"، أعطاه إياه "عمرو بن لحي" فحملة على وادي القرى، فأقره بدومة الجندل^(٢٧).

- سواع :

كان موضعه برهاط، من أرض ينبع ، وهو صنم هذيل ، عبدته: بنو كنانة، وهذيل، ومزينة، وكان سدنته بنو صاهلة من هذيل^(٢٨).

. يغوث:

وهو من جملة الأصنام التي فرقها عمرو بن لحي على من استجاب إلى دعوته من القبائل، فقد دفعه إلى أنعم بن عمرو المرادي، الذي وضعه بأكمة منحج باليمن، فعبدته منحج ومن والاه وأهل جرش^(٢٩).

(٢٥) ابن الكلبي، الأصنام، ص ٥١-٥٣، ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ط ١، دار صادر، بيروت، ١٣٥٨هـ / ١٩٦٦م، ج ١، ص ٢٣٢.

(٢٦) جواد العلي، المفصل، ج ١١، ص ٢٥٤.

(٢٧) ابن الكلبي، الأصنام، ص ٥٥، محمد الخطيب، المجتمع العربي القديم، ص ١٦٨.

(٢٨) ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، ط ٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م، ج ٢، ص ٤٩٢، جواد العلي، المفصل، ج ١١، ص ٢٥٨.

(٢٩) جواد العلي، المرجع نفسه، ج ١١، ص ٢٦٠، محمد الخطيب، المرجع نفسه، ص ١٦٨.

- يعوق:

دفعه عمرو بن لحي إلى مالك بن مرثد ... بن خيوان بن نوف بن همدان فوضعه في موضع خيوان، حيث عبدته همدان وخولان ومن والآها من قبائل^(٣٠).

- نسر:

كان من نصيب حمير، أعطاه عمرو بن لحي لقييل ذي رعين المسمى "معديكرب" فوضعه في موضع بلخع من أرض سبأ، فتعبدت له حمير إلى أيام ذي نواس، فتهودت معه، وترك هذا الصنم^(٣١).

- إساف ونائلة:

تعددت القصص والروايات حول إساف ونائلة، فيزعم بعضهم أنهما إنسانان؛ عملاً عملاً قبيحاً في الكعبة، فمسخا حجريين، ووضعوا عند الكعبة ليتعظ الناس بهما. فلما طال مكثهما، وعبدت الأصنام، عبدا معها^(٣٢). وفي رواية أخرى؛ أنهما "أخرجوا إلى الصفا والمروة فنسبا عليهما ليكونا عبرة وموعظة، فلما كان عمرو بن لحي، نقلهما إلى الكعبة ونصبهما على زمزم، فطاف الناس بالكعبة وبهما حتى عبدا من دون الله^(٣٣).

(٣٠) محمد بن حبيب البغدادي، المنق في أخبار قريش، تحقيق خورشيد أحمد فاروق، ط ١، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ص ٣٢٨.

(٣١) محمد الخطيب، المرجع نفسه، ص ١٦٩.

(٣٢) ابن الكلبي، الأصنام، ص ٢٩.

(٣٣) جواد العلي، المفصل، ج ١١، ص ٢٦٦.

وكانت من تقاليد العرب وعاداتهم في عبادة الأوثان والأصنام ، أنهم كانوا يلجئون إليها بالدعاء ويستشفعون بها في الشدائد ، ويقدمون إليها القرابين ويطوفون من حولها ويحجون إليها ويجعلون لها نصيب من الأنعام ، قال تعالى: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) ^(٣٤) ، وكان من دينهم تقديم الإبل والأنعام كنذور وقرابين إلى الآلهة فتحبس عليها ولا يمساها أحد بسوء منها ؛ ما يسمى بالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامي قال تعالى : (مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) ^(٣٥) .

فضلاً عن عبادة الأصنام والأوثان فقد كان العرب يعبدون الكواكب ، كالشمس والقمر والزهرة وكواكب أخرى كالديبران والمرزم والشعري وعطارد ... وغيرها . فقبيلة كنانة كانت تعبد القمر والديبران ، وجرهم عبدت المشتري ، وبعض قبائل ربيعة عبدت المرزم ، وبعض قبائل لخم وخزاعة وقريش عبدت الشعري العبور . وأول من سن للعرب عبادة الشعري عبور هو أبو كبشة وجزء بن غالب جد وهب بن عبد مناف أبو أمنة أو رسول الله ﷺ ، والشعري من نجوم الجوزاء وسمي العبور لأنه عبر المجرة ، وانضم إلى سهيل ، أما المرزم فهو عبارة عن نجمان ، أحدهما يتبع الشعري العبور

^(٣٤) الأنعام ، الآية ١٣٦ ، عبد الحكيم ، منصور : بلاد الحجاز ، ص ١٢٥ ، محمد الطيب النجار ، القول المبين في سيرة سيد المرسلين ، دار الندوة ، بيروت ، ص ٥٧ .

^(٣٥) سورة المائدة ، الآية ١٠٣ ،

ويسمى كف الكلب ، والآخر يعرف بالكوكب الأخرى . وقد عرف عبدة الكواكب بالصابنة الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم في قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِنِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (٣٦) .

وهذه الأعداد الكبيرة من المعبودات في تلك الفترة التي سبقت ظهور الإسلام ، لم تكن منفردة ، بل كان ينافسها في عبادتها ديانتان سماويتان هما اليهودية والنصرانية ، واليهودية في أصلها وجوهرها ديانة توحيد ، يعتقد أنها دخلت لحجاز في القرن الأول الميلادي (٧٠م تقريباً) بعد أن اشتد ضغط الرومان عليهم ، فهاجر بعضهم وسكنوا في يثرب وخبير وفدك وتيماء ووادي القرى (٣٧) .

أما النصرانية فقد دخلت الحجاز بطرق عديدة ومختلفة منها : عن طريق التبشير من جهة الحبشة والشام وفلسطين وعن طريق الرقيق الذين كان يتم جلبهم من الحبشة أو من أنحاء الإمبراطورية البيزنطية (٣٨) ، وعن طريق التجارة ، فقد أصبحت مكة في تلك الفترة (نهاية القرن السادس الميلادي) تسير على طريق التجارة الغربي، هذا الأمر جعلها تتصل بعرب اليمن وعرب بلاد الشام الذين كان معظمهم من النصارى، إضافة إلى اتصالها بأطراف

(٣٦) سورة البقرة ، الآية ٦٢ ، محمد الخطيب ، المجتمع العربي القديم ، ص ١٦٩-١٧٠ .

(٣٧) محمد الطيب النجار : القول البين في سيرة سيد المرسلين، ص ٦٩-٧١ .

(٣٨) حسين العودات، العرب النصارى، ط ١، مطبعة الأهالي، دمشق ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص

٤٧ - ٤٨ ، جواد علي، المفصل ج ٧، ص ١٢٠ .

الإمبراطورية البيزنطية وأقياط مصر، فادى بها ذلك إلى الاطلاع على النصرانية وفلسفتها^(٣٩).

وإضافة لما سبق فقد كانت هناك ديانات غير سماوية انتشرت بشكل محدود مثل الزندقة، ويذكر المؤرخون أنه كان من زنادقة قريش أبو سفيان بن حرب وعقبة بن أبي معيط وغيرهم، ويذكر أنهم تعلموا الزندقة عن طريق نصارى الحيرة^(٤٠).

ويمكن القول إن العرب في هذه الفترة، كانوا يؤمنون بأخبار الكهنة والعرافين والمنجمين والسحرة الذين كانوا يدعون معرفة الغيب ومعرفة الأسرار، حيث كان يعتقد بأن للكهنة أذهاناً حادة ونفوساً شريرة وطباعاً نارية هي التي جعلت الشياطين تأنس لهم وتساعدهم، لذلك كان للكهنة مكانة وشأن عظيم في حياة الناس، وأصبحت جزءاً من حياتهم اليومية لا يستطيع المرء أن يتحرك أو يقدم على عمل دون الرجوع إليهم. فضلاً عن ذلك فقد كان العرب يعرضون صبيانهم على العرافين لإخبارهم عن مستقبلهم، وكانت الأسواق مثل سوق عكاظ موئلاً لهم. فقد كان العراف يجلس فيها حيث كان يأتيه

(٣٩) سحر يوسف القواسمي، التجارة ودولة الخلافة في صدر الإسلام منذ فترة الرسالة وحتى أواخر الدولة الأموية، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، قسم التاريخ، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ص ٢٣ - ٢٤.

(٤٠) ابن حبيب، المنطق في أخبار قريش، ص ٣٨٨ - عبد الشافي محمد، الحالة الدينية في الحجاز قبيل الإسلام، عبد الشافي محمد عبد اللطيف، الحالة الدينية في الحجاز قبل الإسلام، دراسات تاريخ الجزيرة العربية، ط ١، جامعة الملك سعود، الرياض، المجلد الثالث، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، ص ٤٨.

الصبيان مع نويهم فيقول عنهم ما يجول بخاطرهم، وذلك بالتفرس في وجه الصبي ومقارنة ذلك بما حصل عليه من تجارب في هذا الباب^(٤١).

كما كان العرب يستقسمون بالأزلام ، وهي إحدى طرق التنجيم ، وكان يتم ذلك أمام الأصنام حتى يكون تعبيراً عن مشيئة الآلهة وإرادتها ، وبعض الكهان كانوا يحملون الأزلام على أكتافهم ويستقسمون بها في الأسواق والتجمعات العامة خاصة في أيام الأعياد ، وكان القائم بالاستقسام يتقاضى أجراً معلوماً يصل إلى مائة درهم عند سدنة هبل ، وكان الناس يتفائلون بالأزلام ، ويرجعون إليها في رحلات السفر أو العمل أو الزواج أو دفع الديات، فضلاً عن التأكد من الأنساب المشكوك فيها^(٤٢).

ورغم كل ذلك الشرك والكفر بالله، فقد كانت هناك فئة من الرجال، أدركوا فساد عبادة الأوثان ونفروا منها، واتخذوا من عقيدة إبراهيم عليه السلام ديناً لهم، وهو الدين الذي يدعو إلى عبادة الله الواحد الأحد، وقد عرف هؤلاء بالحنفاء، قال تعالى : (حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ) ^(٤٣) وقد تجنبوا فعل المنكرات التي نفشت في مجتمعهم مثل شرب الخمر ولعب الميسر وغيرها

^(٤١) جواد علي، المفصل، ج ١٢، ص ٣٣٨، محمد الخطيب، المجتمع العربي القديم، ص ١٥٠.

^(٤٢) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا، تحقيق يوسف علي طويل، ط ١، دار الفكر - دمشق، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧ م، ج ١، ص ٤٥٨، أحمد مغنية، تاريخ العرب القديم، ط ١، دار الصفوة، بيروت، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤ م، ص ١٧٧.

^(٤٣) سورة الحج، الآية ٣١.

ونصحوا الناس بالابتعاد عن الوثنية والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى^(٤٤). كما كان بعض العرب يعظمون البيت الحرام ويطوفون حوله ويحجون ويعتَمرون ويقفون بعرفة رغم أنهم ابتَدَعُوا فيها أيضاً، فقد كان من عاداتهم في هذا المجال، قولهم (عرب الحجاز) نحن بنو إبراهيم وأهل مكة والحرم وولاية البيت، كما قالوا بأنهم أهل الحمى، بمعنى أنهم لا يخرجون من الحرم بمكة في أيام الحج ولا يقفون بالمزدلفة أو عرفة لأنها خارج الحرم، وبالتالي فإنهم يتميزون عن سائر الناس، وقالوا أنه لا يحق للذين يأتون إلى الحرم للحج أو للعمرة (أهل الحل) أن يأكلوا طعاماً جاءوا به من بلادهم، كما أمروا أهل الحل من الحجاج بعدم الطواف في ثياب جاءوا بها وأن يشتروا الثياب منهم، فإن لم يجدوا ما يشترون به طافوا عرايا حتى النساء كانت تخلع ثيابها كلها إلا درعاً على العورة ثم تطوف، كما كانوا لا يأتون بيوتهم من أبوابها في حال الإحرام، حيث كانوا يتقربون في ظهور البيوت حتى يدخلوها^(٤٥).

ولكن عندما جاء الإسلام أبطل كل هذه البدع الجاهلية قال تعالى: (ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)^(٤٦) بمعنى أن الله سبحانه وتعالى يأمرهم بالإفاضة في الحج مثل سائر الناس. وكان من الطبيعي أن ما يحدث في الحجاز يتردد صداه في سائر بلاد العرب، الذين

(٤٤) عماد الصباغ، الأحناف، ط ١، دار الحصاد، دمشق ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م، ص ٣١-٣٢، محمد حسن العبدروس، الدولة الإسلامية الأولى، ط ١، دار الكتاب الحديث، القاهرة، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م، ص ٢٧.

(٤٥) منصور عبد الحكيم، بلاد الحجاز، ص ١٢٧.

(٤٦) سورة البقرة، الآية ١٩٩.

يأتون إلى مكة لزيارة البيت الحرام أو للتجارة ، ويتأثرون بكل ما هنالك من عقائد وأفكار^(٤٧) .

وأخيراً يمكن القول إن لأهل الحجاز في الجاهلية طرقهم الخاصة في العبادة ، ولهم طقوسهم وشعائهم ، ربما كانت مستمدة من صميم البيئة التي كانوا يعيشون فيها ، وظل هذا الوضع الديني على هذا السوء والفساد والاضطراب ، إلى أن جاء آخر الأنبياء محمد بن عبد الله ﷺ وخاض معركته مع الوثنية بنجاح، ثم أرسى دعائم التوحيد الخالص لله سبحانه وتعالى .

(٤٧) عبد الشافي محمد عبد اللطيف ، الحالة الدينية في الحجاز قبل الإسلام ، ص ٤٣ .

